

العقلية الربعية وأثرها على السلوكات السياسية

سومار عبد القادر

أستاذ بجامعة سيدي بلعباس

تمهيد :

لقد أدت صدمة النفط في الستينات مع ما ارتبط بها من ثروات مالية ضخمة غير مرتبطة بجهود أو قدرات فنية أو مهارات جديدة إلى إحياء فكرة الربيع والاقتصادات الربعية ففي خلال فترة قصيرة من الزمن تدفقت أموال هائلة بشكل لم يسبق له مثيل على عدد محدود من الدول النفطية ودون مقابل على ظروف الإنتاج مما أعاد للأذهان فكرة الدخول غير المكتسبة ومن ثم وصف الاقتصاديات الربعية وقد انعكست هذه الظاهرة في مجموعة من أنماط السلوك على مستوى الجماعات والأفراد مما تطلب معالجة خاصة، تكمن في الذهاب إلى درب التعاريف والمفاهيم قصد إيضاح محتويات و تجليات الإشكال الذي نخوض فيه ومن بين هذه المفاهيم :

مفهوم الربيع :

إنما نقصد بالربيع الدخل النقدي أو العيني الذي يحصل عليه الشخص بممتلكاته أو من الدولة بصفة منتظمة ويعيش منه دون الحاجة إلى القيام بعمل إنتاجي، فكل دخل خام هبات الطبيعة الدولة لا يبذل فيه صاحبه جهداً إنتاجياً ولا هو نتيجة استثمار فهو (الربيع) سواء كان مصدره داخل البلاد أو خارجه .

إن معنى الربيع أشار إليه ابن خلدون في كتابه المقدمة وقال : "بأنه مذهب في المعاش غير طبيعي".

فالدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها فيكون دخل تلك الأموال من الرعية و خروجها في أهل الدولة فتعظم بذلك ثروتهم وتكثر غنائمهم وتتزايد عوائد الترف ومذاهبه وتسمى الدولة القائمة عليه "الدولة الربعية".

كما أن مقولة الربيع شهدت تطور عبر مختلف المراحل التاريخية بحيث أخذت معنى مع المرحلة الإقطاعية تبلور من خلال علاقة رجال الإقطاع بالأراضي التي يمتلكونها والفلاحين الذين يسهرون على عملية الإنتاج بحيث تبين لنا أن علاقة الإقطاعي بالأرض لم تكن مباشرة بل كانت تحتاج إلى وسيط الذي لم يكن سوى الفلاح يبيع جهده مقابل حصة نقدية أو عينية. ثم تحول مفهوم الربيع من النظام الكلاسيكي مع "ماركس" إلى ربيع عقاري تتحكم في مجرياته الدولة من خلال استحداث فكرة الضريبة لتكون مصدراً أساسياً لإيراداتها.

ثم إن مفهوم الريع مع شكله الرأسمالي أي منذ تبلور الطبقة البرجوازية الصناعية من خلال "ادم سميت" و "ريكاردو" وفيه نلاحظ أن الريع مدين في شكله الظاهري لفكرة الأرض وكيف أن سعر الإنتاج يختلف بين الأرض الخصبة والأرض السيئة.

ومع الماركسية سيأخذ الريع طابع فائض القيمة وكيف يتحول العقاري "مالك الأرض" إلى مستحوز على الريع دون القيام بأي مجهود أو تنظيم للاستثمار في أرضه. وسيظهر مصطلح الريع الرأسمالي حين يتحول "مالك الأرض" إلى رأسمالي ثانوي باعتبار أن المستحوز الكبير على أكبر قدر من الرأسمال هو الرأسمالي الكبير وعلى هذا يمكن القول أن الريع اعتبر من بدايته من الدخول التي تساعد على التراكم.

ثم إن فكرة الريع منذ الصدمة النفطية وقيام ثروات مالية ضخمة غير مرتبطة بجهود أو قدرات أو مهارات جديدة وكيف انعكست هذه الظاهرة على أنماط السلوك الاجتماعي في الوطن العربي لا نعني إحياء فكرة الدولة الريعية القديمة في التحليل الاقتصادي وإنما لكي تساعدنا على تقديم بعض العناصر المفيدة في فهم أثر الظاهرة النفطية الجديدة وما خلفته من أنماط السلوك الاجتماعي سواء في طبيعة دور الدولة أو في سلوك الأفراد ونظرتهم إلى النشاط السياسي والاجتماعي دون القول أن فكرة الريع محددة بصورة كاملة وهذا يستند إلى افتراض أساسي هو أن الدولة الريعية ساعدت على خلق العقلية الريعية.

فالعائد لا يغدو أن يكون رزقا أو حظ أو صدقة وليس جزءا من نظام إنتاجي العقلية الإنتاجية والريع عمل منعزل لا يرتبط بالظروف أو القدر وليس حلقة في العملية الإنتاجية وما يرتبط بها من جهد ومخاطر ومن هنا يظهر التعارض بين العقلية الريعية والعقلية الإنتاجية وقبل هذه الأخيرة العائد أو المكسب هو نتيجة لعمل إنساني منظم وكجزاء على جهد أو مقابل تحمل المخاطر.

مفهوم السلطة

كانت السلطة محل جدل واسع أثار فضول الكتابات الفلسفية والسياسية وأهم المقاربات التي تعنى به هي ما جاء به "ماكس فيبر" وذلك كون أنه سن لنا كيف يتجلى تأثير السلطة كموضوع بحث أثار اهتمام دوركايم، ماركس، توكفيل... وغيرهم كرد فعل لأحداث الثورة الفرنسية.

ولقد تبلورت ثلاث صور أساسية للسلطة هي :

- السلطة التقليدية.
- السلطة العقلانية.
- السلطة الكاريزمية.

وهي مقولات أساسية لعلم اجتماع السلطة عند "ماكس فيبر".

تناول فيبر السلطة من خلال تمييزه بين مفهومين هما مفهوم القوة ومفهوم السيطرة.

مفهوم القوة؛ هو فرض إرادة الفاعل على الآخرين (السلطة) بمعنى فرصة السيد على تحقيق طاعة هؤلاء الذين يدينون له نظريا ولعل أشهر نماذج السلطة عند ماكس فيبر تتحدد في ثلاث أنواع :

السلطة التقليدية؛ سلطة تستمد شرعيتها من الاعتقاد بقدسية التقاليد كالسلطة الأبوية وسلطة القبيلة أو العشيرة أو حتى سلطة الأمير التقليدي على أفراد شعبه، إنها سلطة لها قدسية سحرية معينة تقوم على الاعتقاد أن من يخالفها يتعرض للعقاب الإلهي أو نوع من الشر الديني.

السلطة العقلانية؛ هي سلطة الحداثة السياسية يستمد الحاكم سلطته من قواعد دستورية أي ممارسته السلطة بقواعد غير شخصية.

السلطة الكاريزمية؛ هي سلطة الإيحاء وبالتالي فإنها سلطة لا تسلم بالعقلانية.

مفهوم العقلانية؛

إن عامة الناس قد يقعون في التباس أو خلط بين العقل والعقلية، فإذا كان العقل نشاط ذهني متحرر نسبيا من الضغوطات والظروف الاجتماعية أو المحيطة بنا فإن العقلية أن ترجمة الواقع المعاش في جميع انتصاراته وتشوّهاته فالعقلية هي سلوكات أشخاص يحملون سلطة وخاضعين لإكراه وغير متحررين من مختلف التأثيرات الداخلية والخارجية، وبالتالي فالعقل قد يكون مكونا متحررا وقد يكون عقل متكون بمعنى عقلية تترجم سلطة معينة.

إذا كيف تمثلت مختلف الآثار السلبية في السلوكات السياسية؟

وهل استمرارية وتمادي ظاهرة الربيع عبر التاريخ وتطور المجتمعات هو الذي جعلها تؤثر على السلوكات السياسية؟ أم هذا راجع إلى تطور مفهوم الربيع مع تطور المجتمعات؟ ومن الوجهة الطبيعية هل لطبيعة الجغرافية والمناخ في الوطن العربي دخل في هذا الشأن في ترسيخ هذه الظاهرة؟ أما من الناحية الثقافية ومن جهة أخرى هل ظاهرة الربيع هي نتيجة تردّي السبل الداخلية أم هي نسيج أيادي خارجية؟

أما في عوامل تكوين العقلية الربيعية في المجتمع العربي، حاولنا إرجاعها إلى عوامل اقتصادية، اجتماعية، تاريخية ودينية.

أما العامل الاقتصادي فقد أدت صدمات النفط في الستينيات وفي فترة قصيرة إلى تدفق الأموال بشكل مذهل مما أعاد للأذهان فكرة الدخول إلى الربيع. وما أنجز عنها من انعكاسات على أنماط من السلوك وستظل فكرة الدولة الربيعية مجرد محاولة للإحاطة بأهم نتائج الظاهرة النفطية على السلوك الاجتماعي والسياسي.

إن ظاهرة الربيع ظاهرة عامة أي ليست من اختصاص اقتصاد معين ففي كل اقتصاد توجد بالضرورة بعض العناصر الربيعية. ويجب الإشارة إلى وجود نوعان من الربيع :

داخلي : يستند إلى قطاعات إنتاجية داخلية أو محلية .

خارجي : يستند على شبه مساعدات خارجية أو تحويلات من الاقتصاد الخارجي حيث يؤول إلى فئة صغيرة أو محددة تعيد استخدام أو توزيع الثروة على الغالبية من السكان . ولذا سيظل خلق الثروة هو السبب أو محرك النشاط الاقتصادي بينما استخدام الثروة أو توزيعها هو نتيجة لذلك وقد وقفنا إلى وضع فرق بين الدولة الربعية والاقتصاد الربيعي .

ففي حالة مساهمة عدد كبير من المواطنين في توليد الربيع الخارجي سيصبح الاقتصاد ربيعيا فحين أن الدولة الربعية هي التي تتمركز حولها رؤوس أموال القوة الاقتصادية وتكون بين أيديها وتتمتع بصفة الاستحواذ والاستيلاء .

إن تفسير أوضاع المنطقة العربية خلال الفترة الأخيرة إنما يستند إلى فرضية أساسية وهي أن الدولة الربعية تساعد على خلق عقلية خاصة هي العقلية الربعية .

أما من الناحية الاجتماعية لقد انعكس هذا الدور (دور الربيع) على تشكيل علاقات المجتمع بحيث تم ترتيب هذه العلاقات على نحو يسمح للمصالح الخاصة والفئات الاجتماعية المختلفة بالحصول على أكبر قدر من إعادة توزيع الربيع المتحقق لدى الدولة . وقد ترتب عن قيام هذه الدولة الربعية نشوء شبكة من العلاقات توزع وتعيد توزيع المزايا ، ومن هنا تشكل المجتمع في شكل هرم لكل موضوعه المتميز ، وجاءت ثروة النفط التي قدمت للمواطنين المزيد من الخدمات . وقد أدى هذا إلى ظهور نواة صلبة من العائلات حول نواة الحكم مساهمين في بقائه واستمراره .

وستصبح الدولة الربعية المصدر الرئيسي للتوظيف واليد العاملة وكل المواطنون يتطلعون إلى الدولة لكسب الوظائف الحكومية . وقد أصبح تضخم أجهزة الحكومة يشبه مرحلة الاقتصاد الموجه أو أيديولوجية القطاع العام وبطبيعة الحال فإن إنتاجية الموظفين الحكوميين تكون منخفضة بشكل كلي سواء في مراكز الإنتاج أو حتى الخدمات هي معطلة وربما تكاد تتركز واجبات الموظف العام على "المداومة" في مقر العمل بصرف النظر على نوع وحجم الخدمة التي يؤديها .

وهذا أكبر خطر يترتب على الدولة الربعية كون أنها تخلق هيكل من الشرائح الربعية ، وتؤدي بالضرورة إلى تعميق الفروق الفردية بين الطبقات الاجتماعية والحقوق السياسية والمادية .

أما من الناحية التاريخية الدينية إن الحديث عن الدولة الربعية في واقعنا المعاصر سيظل حديثا قاصرا ما لم نبحث في جذوره التاريخية والدينية . فقد عاش العرب قبل الإسلام حياة ريعية وذهنية ريعية ، ولما جاء الإسلام لم تعمل الكثير من قبائل قريش بهذا الدين باعتباره ثورة على مصالحهم المادية . ومن هنا كان الهجوم على الأصنام يعني المس مباشرة بعائدات الحج إليها ومن هنا نلاحظ كيف كان الاقتصاد العربي اقتصاد ريعي منذ الأزل .

وإذا تقدمنا في تاريخنا العربي الإسلامي سنلاحظ أن قصة الربيع بدأت مع الفتوحات الإسلامية ، فالأرض التي تفتح عنوة أي بعد قتال كانت غنيمة حرب وبالتالي طرحت مشكلة في كيفية اقتسامها ومنه كانت اجتهادات عمر بن

الخطاب (رضي الله عنه) بحيث يمثل هذا العصر أي عصر الخلفاء الراشدين في مخيلتنا الديني والتاريخي "المدينة الفاضلة" وهل هناك أفضل من مدينة يتلقى أهلها رزقهم مما يأتيهم من غنائم؟!

عندما كان أغلب المقاتلين من قبائل بدوية لا يحسنون الزراعة فلجأ كل من حاكم مصر والعراق الشام في عهد "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" بأن يشير عليهم كيفية تقسيم المساحات الشاسعة كسواد العراق وحقول الشام وبساتين مصر. ومنه كان اجتهاد "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" أن تبقى الأرض لمالكها مقابل دفع كراء للدولة الإسلامية المركزية وبهذا يكون "عمر ابن الخطاب رضي الله عنه" قد أقر لأول مرة في التاريخ موردا ثابتا (ريع) متولد عن كراء الأراضي في الاقتصاد الإسلامي.

إن ترسيخ العقلية الريعية في واقعنا المعاصر إنما يرجع إلى امتداد هذه العقلية في الجذور التاريخية التي ترجع إلى أحسن الحقب الزمنية التي مر بها العرب والمسلمون.

أما فيما يخص أثر العقلية الريعية على السلوكات السياسية فنقول، إن البشرية في صورتها الأولى عرفت ما يسمى بمرحلة مجتمعات الصيد أو الإنسان الزبون بمعنى الإنسان المستهلك، إن الإنسان في صورته الأولية ارتبط مع الطبيعة في صورة زبونية فكانت هي المادة الأولية وكان هو الزبون الأول وعلى هذا فليس الريع بالظاهرة المستحدثة في تاريخ البشرية وهذا ما تحدث عنه "جورج غورفتيش" في كتابه الشهير "الأطر الاجتماعية للمعرفة" ولما كان تاريخ البشرية هو نتاج تراكمات فكان من البديهي أن تكف الطبيعة عن العطاء ما لم يغير إنسان من طريقة تعامله معها، فكان لظهور المجتمعات الزراعية نقطة تحول هامة في تاريخ البشرية ذلك أن اكتشاف الإنسان لحظرة الزراعة حوله تحول إلى إنسان منتج، فليس الزراعة في شكلها سوى تعبير عن تحضر البشر واستقرارهم وتحولهم إلى الإنتاج الذي يتطور في المستقبل القريب ويعرف البشر اطرادا متوازنا بين نسبة الاستهلاك ونسبة الإنتاج. لقد دخلت البشرية لحظرة اكتشاف الزراعة وهذا طبقا للمثل الصيني القائل "لا تعطيني سمكة بل علمني كيف اصطدها" ومنه سيصبح الريع يعبر عن عقلية الانحطاط البشري وسيستحوذ الريع على حضارة تاريخية وسيؤثر على اهتمام الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين والفلاسفة لما لهذه الظاهرة من آثار سلبية والتي سوف يظهرها من ناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

إن تظهر أو تبلور العقلية الريعية على المستويات السياسية قد يتجلى من خلال هذا الانقسام الواقع بين الدولة والمجتمع في العالم العربي والإسلامي الذي يعرف غياب صورة المواطنة باعتبار أن علاقته بالدولة علاقة زبونية لا تختلف عن علاقة الإنسان البدائي بالطبيعة بل أقول أن محنة دولة الريع إذا كان بقدرتها توفير ما يلزم من أجل نمو كبير فنقول إن التنمية الحقيقية تفوتها وتظل المحنة قائمة مادام الانقسام قائم بين الدولة والمجتمع. لقد وصل الأمر ببعض كتاب العلوم السياسية إلى القول بأن الحقبة النفطية الجديدة قد عجلت بالموت البطيء لحركة القومية العربية، وأن بداية هذا الموت يمكن أن تؤرخ بمؤتمر الخرطوم عام 1967 حيث نكسة رايات الثورة وبدأت تلعو رايات الثروة. وهنا بدأ تكريس الدولة القطرية بدل مشروع وحلم توحيد الأمة العربية، والاهتمام بأهداف قطرية محدودة بأهداف

إقليمية متعارضة مع المطامح القومية فتوزعت الجنسية العربية إلى جنسيات مختلفة، وقد عملت الدولة الريعانية إلى تكريس المصلحة الفردية والأناية فقسمت الشعوب العربية إلى قطيع من الأغنام وبدأ العمل على تجهيلها وعزلها عن بعضها البعض وربما هذا ما أدى إلى تحول الريع النفطي من نعمة لهذه الدول إلى نقمة، وحول هذه المجتمعات والشعوب من مسار وسبيل الثورة إلى مجتمعات وشعوب أسيرة الثروة. كما أن العقلية الريعانية هي عقلية مشدودة دوماً بفكرة الثبات إذ أنه حتى في ظل التحول نحو دولة الحداثة والاقتصاد المنتج نجد خطاب السلطة الرعوية على ذهنية حاكم الدولة الريعانية، كما أن التحول الاقتصادي نحو اقتصاد منتج لا يفرض بالضرورة تحرر هذه الطبقة من سلطة الحاكم الرعوي ذلك أنهم يظلون تحت هيمنة هذا الحاكم الرعوي وتقلباته السياسية وعلى هذا فالحاكم المتجه نحو الانفتاح الاقتصادي يمكنه أن يحافظ على الجزء الأكبر من المركزية في السلطة دون أن يواجه معارضة أو نفورا من رجال الأعمال لأن هؤلاء غالبا ما تغريهم سياسة الانفتاح المتعجزة.

كما أن مأزق الدولة الرعوية إنما يكمن في إنتاجها سياسة المعاملة بالمثل سواء بالنسبة إلى الطبقات الغنية أو الفقيرة ولا كيف تفسر على سبيل المثال مجانية التعليم بالنسبة لكافة الطبقات الاجتماعية على مستوياتها المادية؟ إن المأزق في سياسة التعليم لدى الدولة الرعوية هو ضخامة رأس المال المخصص للمنظومة التربوية ومأزق ذلك راجع إلى خوفها من المدارس الخاصة ليس لمستوى ما تقدمه من تعليم ولكن إلى أن هكذا نوع من التعليم لا يتوافق مع الجانب العقائدي الذي تقوم عليه الدولة الرعوية.

ومن نتائج المسار الاقتصادي الرعوي هو سقوطه في الاستلاب من حيث تتحالف الدولة الرعوية مع المستهلك على حساب المنتج، من خلال تدخلها المستمر أيضا في الحركة الاقتصادية والإنتاجية، ومن مظاهر هذا الاستلاب هو تحصيل الرزق من مصادر أخرى بدون اللجوء إلى الإجراءات القانونية، ومن أجل حل المعضلة الاقتصادية هو أمر تعودت عليه الدولة الريعانية وترسخ فيها وبهذا فإنها تؤجل المشكلة ولا تحلها.

كما أن قوة الدولة الريعانية وتموقعها على المستوى الداخلي وحتى الخارجي لن يتحقق إلا من خلال ما يعرف بالإنفاق العسكري وهذا يعتبر شكلا من أشكال التخريب الاقتصادي وهذا الإنفاق يكرس النمط الاستهلاكي. وأمام الوفرة المالية الضخمة أصبحت الدولة الريعانية تخشى على سلطتها ونفوذها وهذا ما يدفعها إلى تبني المزيد من الإنفاق العسكري وأجهزة القمع. وكنتيجة لذلك تتحالف سلطة الدولة الريعانية مع سماسة جدد تختمى بهم ويحتمون بها.

وما التمسته من نتائج وأثار للعقلية الريعانية على ممارسة السلطة سواء على المستوى السياسي بانفصام الدولة عن المجتمع وظهور الدولة القطرية واندثار مشروع الوحدة وكذا السياسة المركزية السلطوية إضافة إلى ما التمسته أيضا من آثار في الممارسة الاجتماعية في سياسة التعليم وظاهرة الاستلاب وتضاعف الإنفاق في أجهزة القمع وبدون تفصيل التمسنا أيضا نتائج سلبية في ممارسة الاقتصادية للسلطة كالتبعية للخارج والاستثمار في الأسهم بدل الإنتاج وكذا تفشي ظاهرة الريع حتى عند الدول غير البترولية أو ما يسمى بالدولة الشبه الريعانية.

ينطلق علم الاجتماع من مقولات تبدو وكأنه بديهية من ذلك مثلا أن الذهنية أو العقلانية هي تمثيلات اجتماعية قد تكون أسبابها اقتصادية وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية لا يمكن الوقوف عنها إلا من خلال المتخفي والمستتر فيها فإننا حاولنا قدر الإمكان أن نقف عند حدود اللا مفكر فيه داخل العقلية الريفية. فتوقفنا بشيء من التحليل عند حدود جذورها التاريخية والدينية وتابعناها في صيرورتها الحالية متسائلين مفكرين محللين محاولين الوقوف على دلالتها العميقة طامحين إلى نسق الأطر والمكانزمات التي لا زالت تكرسها وتؤسسها. إنها محاولة استئناف نظر لا ندعي من ورائه الإحاطة الكاملة الشاملة، ولكن سيظل السؤال يلزمننا تجلياته مادامت العقلية الريفية هي التي تصنع الحدث التاريخي في الوطن العربي عموما والجزائر خاصة.

عن هكذا قراءة انطلقت تشخيص ظاهرة الريع وكل إفرازاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولنا الطموح بأننا طرحنا السؤال الأبدي الأزلي ما العمل؟ Que faire.

ولاحظنا أن إحداث القطيعة مع الذهنية الريفية لن يتحقق إلا بالانتقال من ذهنية الإنسان الزبون إلى ذهنية الإنسان المنتج.

المراجع:

- 1 - "الامة والدولة والاندماج في الوطن العربي"، كتاب لمجموعة من المختصين الجزء الأول والثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.
- 2 - حازم البيلاوي، الدولة الريفية في الوطن العربي، ج1، سبتمبر 1987
- 3 - محمود عبد الفضيل، الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، أكتوبر، 1985.
- 4 - هشام شرابي، النظام الأبوي، دار الغريب للنشر وهران، 2002.
- 5 - عبد اللطيف بن أشنها، مدخل إلى الاقتصاد السياسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 02، 1991.
- 6- L. Addi : « l'impasse du populisme Enal, Alger 1990.
- 7 - A. Yafsa » le Processus de légitimation du pouvoir Militaire et la construction du l'état en Algérie.
- 8 - جورج طرابشي معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، ط 1.